ابن ماجد الملاَح الأديب الشاعر

المرحوم الدكتور علي الزبيدي
الأستاذ في كلية الآداب
جامعة بغداد

اكتشف المستشرق الفرنسي كابرييل فرّان كتاب (الفوائد في اصول علم البحر والقواعد) ، وهو كتاب منثور مطعّم بالاشعار يتضمن تسعة عشر باباً او فصلاً يحمل كل منها اسم (فائدة). وألحق به المستشرق أرجوزة (الحاوية) وهي تضم أكثر من الف بيت. وتسبق الكتاب وفصوله مقدمات وتتخللها أبيات وقطع وقصائد من نظمه تتناثر بينها ملاحظات وشروح لغوية وأدبية تستعين بشواهد من الشعر القديم كما يفعل شُرّاح الشعر . وقد طبع فرّان الكتاب بين سنتي 1921_1923م وصدّره بتمهيد موجز جداً باللغة الفرنسية أشاد فيه بابن ماجد وغزارة علمه بأحوال البحار وفنون الملاحة وأكّد انه أعظم الربابنة العلماء في الشرق والغرب حتى نهاية القرون الوسطى(1) وكرّر ذلك وفصّل الكلام فيه في المقالات والبحوث التي نشرها بعد طبع (الفوائد) هو وغيره عن علوم البحاروالملاحة.(2)

وكان المستشرق الروسي الشهير كراتشوفسكي قد اكتشف بعد فرِ ِ ّان بمدة قصيرة جداً كتاباً آخر لابن ماجد الملاّح فيه ثلاث أراجيز تعليمية طويلة فأعلن اكتشافه واتصل بفرّان وشاوره في الامر وامتدح جهوده كما ذكر في بعض مقالاته المنشورة وفي كتابه (مع المخطوطات العربية) وكتابه الشهير الآخر (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) (3) وبعد سنين قام تلميذه تشومو فسكي بنشر الاراجيز الثلاث بعنوانها (ثلاث راهمانجات

مجهولة) سنة 1957 مصورة عن المخطوطة وقدّم لها ببحث قيّم عن ابن ماجد وسيرته ومنزلته العلمية ومؤلفاته..الخ (4)

واعترف المستشرقون الثلاثة والذين اهتموا بعدهم بعلوم البحار والملاحة والادب الجغرافي العربي امثال دي غويه الهولندي وسوسير السويسري وبلاشير الفرنسي وغيرهم كثير بفضل العرب في هذا المجال واكدوا ان لابن ماجد النصيب الاكبر من هذا الفضل وخاصة على البرتغاليين والاسبان ، لانه شهد بداية الغزو البرتغالي في المحيط الهندي والخليج العربي في اواخر القرن الخامس عشر واوائل السادس عشر ، ولأن مؤلفاته كانت معروفة شائعة الاستعمال ، إلا ان المستشرقين عامة تمسكوا بالزعم القائل ان فاسكودي غاما اتخذ ابن ماجد مرشداً فمكّنه من الوصول الى الهند والسواحل العربية وتلك فرية لا تصمد امام البحث التاريخي الرصين كما اكد معظم الباحثين . (5)

وكانت علوم البحار والملاحة والجغرافية قد تطورت وتقدمت تقدماً عظيماً عند العرب خلال العصر العباسي أي قبل عصر ابن ماجد بعدة قرون ، كما أشار هو نفسه مراراً وتكراراً ولكن اكثر ما الفه العلماء السابقون قد ضاع. ويفخر ابن ماجد بما أضافه وتوصل اليه واخترعه بفضل علمه وخبرته الطويلة في قيادة السفن والتجوال في البحار. وله الحق في هذا الافتخار ، غير ان اغلب مؤلفاته هو نفسه قد فقدت ايضا. والقليل الذي وصل الينا تداوله النسّاخ من الربابنة و المحترفين وغيرهم ففشا فيه التحريف والتصحيف والخطأ والخلط وغير ذلك مما يعتور المخطوطات المنسوخة عن الاصل بعد عصر اصحابها. وكانت هذه المؤلفات معتمد الملاحين والربابنة العرب والمسلمين في حياة ابن ماجد وبعد موته وحتى القرن الثامن عشر. ومن أشهر هؤلاء من القادة العثمانين ببري ريُّس الذي قاد اسطولا عثمانيا سنة 1551م لاسترداد مسقط وهرمز من الغزاة البرتغاليين ، وقد الّف باللغة التركية كتابا سماه (بحرية). ثم الاميرال العثماني الشهير علي ريّس حسين المعروف بكاتب روحي وكان شاعراً وهو الذي قاد اسطولاً آخر سنة 1554م لطرد البرتغاليين من الخليج والّف هو ايضا كتاباً علمياً بحرياً كبيراً بعنوان (محيط) اعترف في مقدمته بانه أفاد من التراث العلمي العربي ثم قال انه لم يترك فرصة تمر دون ان ينتفع مما كتبه البحارة

المعاصرون له ولا سيما احمد بن ماجد وسليمان المهدي؟ ، وذكر كتبهما مثل كتاب الفوائد والحاوية وتحفة الفحول وقلادة الشموس وغيرها. ويؤكد فرّان ان جميع المعلومات البحرية والملاحية في كتاب (محيط) وكتاب (بحرية) ليست الا ترجمة تركية ركيكة لما جاء في كتاب الفوائد. وقد أيّد المستشرقون والباحثون العرب امثال د. انور عبد العليم وحسين فوزي وجوران ومحمد منير مرسي وغيرهم ملاحظة فرّان المستشرق الفرنسي وأضافوا تفاصيل وأدلة اخرى .(6)

ولا نود الخوض في هذا الموضوع فقد بُحث وأُعيد بحثه مراراً وتكراراً. وليس من شأننا ايضا العودة الى سيرة ابن ماجد الملاّح ومراحلها واحداثها المهمة وغير المهمة للسبب نفسه ولأن موضوع بحثنا هذا دراسة ما وصلنا من رجز ابن ماجد وقصيده ونثره. فابن ماجد العالم البحّار معروف للقاصي والداني وهو علم من اعلام التراث العربي ، ولعله اشهر شخصية علمية خليجية عرفها الشرق والغرب قديما وحديثا. اما ابن ماجد الاديب الشاعر الذي خلف نتاجا منظوما ومنثورا ليس بالقليل فلم يكن موضوع دراسة ادبية حتى اليوم. والمقال الذي كتبه حسن كامل الصيرفي بعنوان (الملاّح الشاعر) في مجلة المجلة المصرية سنة 1957 اكتفى بالاشارة الى شعره الرقيق ومطالع أراجيزه ولم يدرس هذا الشعر او يحلله) (7)

امّا اعمال الذين ذكرناهم والابحاث والمقالات الكثيرة التي تناولت ابن ماجد، فقد اقتصرت- اذا استثنينا بعض الملاحظات العابرة – على الجانب العلمي الخاص بعلوم البحر وفنون الملاحة وأُهمِل الجانب الادبي او كاد كما اشرنا ، فلم يحظ ببحث مُجمل او مُفصّل . صحيح انّ ما قيل عن اسلوبه ولغته قليل لا يتعدى الاشارة الى ما في أراجيزه خاصةً من اخطاء نحوية ولغوية وعروضية ولكنه لا يصلح للخروج بحكم سلبي عام عن ادبه وشعره ولأسباب كثيرة سيأتي ذكرها. ومن جهة اخرى ادرك الذين درسوه الأهمية اللغوية والقيمة الكبيرة لمئات المصطلحات العلمية والملاحية التي يزخر بها كتاب(الفوائد) وكتاب (ثلاث أزهار من علم البحار) واراجيزه الاخرى.(8) والحق انها ثروة لغوية يمكن ان تمدنا بمعجم كبير خاص بعلوم البحار و الملاحة وهندسة السفن القديمة والجغرافية الطبيعية والبحرية والمناخية والفلكية والتاريخية التي تعني بالاقاليم والبلدان القديمة. ومن شأن هذا

المعجم تمهيد السبُل لدراسات لغوية ذات فوائد جليلة للمشتغلين بتعريب العلوم ومصطلحاتها ، وللمعنيين بدراسة اللغة العلمية العربية وتأثيرها في الاساليب الادبية وتأثرها بها ، وللمهتمين باللهجات الدارجة في اقطار الخليج العربي والجزيرة الوسطى والجنوبية ، وللمختصين بعلم اللغة المقارن والادب المقارن المشتغلين بتتبع تأثير اللغة العربية في اللغات والآداب الاجنبية المجاورة للخليج العربي والقريبة منه ومدى تأثرها بتلك اللغات وآدابها. ولعل من اهم موضوعات النوع الاخير من الدراسات الكشف عن تأثير اللغة العربية في اللغة السواحلية واللغات و اللهجات الاخرى في افريقيا الشرقية وجزر المحيط الهندي الجنوبية. (9)

والحق ان الملاحظات والاقوال القليلة التي تخص اسلوب ابن ماجد ولغته وشعره ونثره وثقافته الادبية لا تُغري مؤرخي الادب بالاهتمام بهذا الجانب لان اغلبها ان لم نقل كلها ، آراء عابرة واحكام فضفاضة يسودها التعميم والقطع بضعف اسلوبه في جميع شعره ونثره ، وبفقر لغته ، هكذا دفعةً واحدة ، محتجة بوجود مجموعة من الاخطاء النحوية والصرفية والعلل العروضية. ولسنا بحاجة الى القول بأن احكاما عامة كهذه لاتنطبق على كل ارجوزة وكل قصيدة نظمها الملاّح الشاعر فبينها اشعار وقصائد وقطع جيدة من حيث الشكل والمضمون ، وصفحات من النثر غير العلمي لا يخلو اسلوبها من خصائص فنية جيدة وخاصةً اذا اخذنا بنظر الاعتبار تدهور الشعر والنثر والثقافة وتفشي الضعف واللحن في نتاج الشعراء بصورة عامة ، أعني ان احكامنا ولنقُل تقييمنا لأدب ابن ماجد سيتغير اذا وضعناه في مواقعه الزمانية والمكانية وحددنا موضعه في لوحة الشعر والنثر الباهتة في القرن التاسع للهجرة ثم قسنا مستواه وقيمته وعيوننا لا تغفل عن اجزاء اللوحة الاخرى وعن جمهرة شعراء العصر على الاخص.

ولا ننسى ان الحياة الثقافية والادبية في الخليج العربي والجزيرة لم تحظ بعناية مؤرخي الادب والفكر الا قبل سنوات معدودة ، فسادَ الاعتقاد بان آدابها وعلومها فقيرة مجدبة وذلك خطأ تاريخي سببه الوهم وقلة الاطلاع على ما ذكرته المصادر القديمة ولاسيما الخليجية (10) ، والابحاث والدراسات الحديثة التي اهتمت بالتراث الأدبي والفكري في المنطقة.(11) ولولا ما أتحفنا به الدكتور شوقي ضيف في كتابه (عصر الدول والامارات)

لبقيت معارفنا عن الادب والثقافة في أقطار الخليج والجزيرة العربية مشوشة ضحلة ، ولاستمرّ الاعتقاد والتوهم بان الوقوف على شعرائها وادبائها وقفات طويلة مضيعة للوقت والجهد.(12) فما قولك- والامر كما ترى – بمن يهتم بأدب ابن ماجد الملاّح المشهور بعلمه الفائق في فنون الملاحة وعلوم البحر لا بأدبه او شعره ؟ وما قيمة هذا الشعر او النظم التعليمي اذا قورن بنتاج الشعراء المجيدين ؟ ولو فرضنا ان له بعض الخصائص والمزايا الفنية فأين هي مؤلفاته النثرية والقصائد والاراجيز الكثيرة التي لم يصل منها الا كتاب الفوائد وبضعة اراجيز ، وفُقد الباقي الذي بلغ كما قال الباحثون نحو اربعين مصنفا ؟ وها هو شوقي ضيف الذي عنى بأدب الجزيرة والخليج العربي لم يشر بكلمة واحدة الى مزيّة واحدة لشعر ابن ماجد كما فعل مؤرخو الأدب العربي الاخرون ؟ واكتفى بالكلام عنه في باب صغير كرّسه لعلوم الملاحة.(13) اما علي عبد الخالق علي الذي كتب اطروحة جامعية عن الشعر العُماني فتح في فصلها الاول باباً عن ملامح الأدب واتجاهاته في عصر بني نبهان (1145-1406م) وآخر عن الشعر في عصر اليعاربة (1622-1741م) لم يذكر فيهما اسم ابن ماجد لابصفته احد أقطاب العلوم والثقافة ولا بصفته رائد الشعر العلمي التعليمي في عصره على اقل تقدير .(14)

ان الذي يؤرخ الآداب بالمفهوم العام الذي يعني تاريخ الثقافة كما فعل بروكلمان وعمر مروخ وغيرهما لا يمكن ان يهمل ابن ماجد لأنه اكبر شخصية علمية في علوم البحار والملاحة والجغرافية . والذي يؤرخ للأدب العربي بمفهومه الخاص الدال على النتاج المفعم بالجمال الفني لا يستبعد او يطرح جانبا اقساماً من الأدب التأريخي والأدب الجغرافي والأدب الفلسفي وضروبا من النثر العلمي او غير الادبي لأنها لا تخلو من قدر غير قليل من خصائص الجمال الفني من حيث الاسلوب و احياناً من حيث الموضوعات وطرق المعالجة والتعبير . وفي تأريخنا الثقافي عدد كبير من المصنفين والمؤلفين الذين جمعوا بين العلم والأدب وامتازوا بجمال الأسلوب . وفي الادب الجغرافي وهو ما يهمنا هنا نفر من اولئك (العلماء الادباء) كالمسعودي والمقدسي وابن الفقيه وابن حوقل والادريسي وياقوت ناهيك عن اصحاب الرحلات كأبن جبير وابن بطوطة وغيرهما .(15) لا ريب في

اننا لا نريد ان نضع ابن ماجد مع كبار الشعراء – وهم قلة في هذا العصر- ولكننا لا يمكن ان ننكر أنه شاعر من طراز فريد لا يخلو الوقوف على شعره من الاثارة كما يقول الصحفيون ، وانه أديب واسع الثقافة والاطلاع على التراث الأدبي يكتب اذا شاء نثرا فصيحا مرسلا سليما من التكلف والتصنع والتولُع بالمحسنات البديعية مما أغرق فيه كتاب عصره. ويحسن أن لايفوتنا حقيقة عظيمة الأهمية هي ان ابن ماجد ينظم أراجيزه العلمية التعليمية للربابنة والملاحين من أشباه الأميين . ومع ذلك فهو لا يكتب باللغة الدارجة ولا يهمل كل الإهمال قواعد النحو والصرف والعروض ولا يكثر من اللجوء الى الضرورات الشعرية على الرغم من ان مثل هذا الموضوع ومثل هذا الجمهور المحتاج إلى هذه الأراجيز يضطرُّه إلى ذلك في أحيان غير قليلة . ومع ذلك فان في أراجيزه وفي صفحات كتاب(الفوائد) أشعار وقطع وقصائد من أغراض الشعر الأخرى كالغزل ووصف الخمر ووصف الشباب والشيب والزهد ووصف النجوم والأفلاك ومدح الرسول(ص) ، أضف إلى هذا كثرة الشروح اللغوية والاستطرادات الأدبية المدعمة بشواهد من التراث الشعري الجاهلي والإسلامي والعباسي المزينة او المطعَمة بطرف وأخبار أدبية كثيرة.

اذا لاحظنّا هذا كله أيقنّا ان الجانب الأدبي من هذه الشخصية الفذّة جديرٌ بأن نقف عليه وأن نُشخص ملامحه وسماته وأن نعرف ما له وما عليه ، فليس بين رجال البحر في العصور السابقة من يُضارعه في علمه وثقافته العامة ومن يفوقه في ثقافته الادبية ، وفي حبه للشعر وكلفه به وصبره الطويل على نظم آلاف الابيات في الشعر التعليمي لا تقتصر على بحر الرجز بل تتجاوزه الى القصيد على الأبحر العروضية الاخرى ، وهذا يدل على ان له ملكة او سليقة ترقى الى مستوى الموهبة في أحايين كثيرة حتى ليبدو لنا شاعرا قديراً جديراً بالاهتمام اذا تذكرنا جدب الشعر وجفافه في العصور المتأخرة وقارنّا ابن ماجد بسواد الشعراء في القرن التاسع للهجرة. ولا أُبالغ اذا قلت ان عدداً من قطعه وابياته تثير الاعجاب ولا سيما ذات الطابع (البحري) أعني الذي تتمثل فيه صفات الملاّح المتجول والعالم المتأمل والبحَار الأديب الخبير بأحوال الدنيا وطبائع البشر وغير ذلك من

الخصائص التي يُدركها المعنيّون بما يسميه بعض الباحثين (ادب البحر).(16)
والحق ان ثقافة ابن ماجد الأدبية لم تخفَ على المستشرقين الذين اكتشفوا شعره وبعض مؤلفاته المنثورة منذ اوائل هذا القرن ثم أكدها ورددها الذين كتبوا عنه من علماء العرب وأدبائهم المعاصرين من غير تفصيل .
قال الاستاذ كراتشو فسكي (وابن ماجد قارئ مطلع في مجال الأدب ، لايقتصر محيط قراءته على أهل الجغرافية الملاحية...) (ومعرفة ابن ماجد بالأدب الجغرافي هامة ليست أقل من معرفته بالأدب الملاحي....)(ومن ناحية اخرى تقابلنا لديه أسماء ابن حوقل وابن سعيد وياقوت ، أضف الى هذا انه لا يهمل مصنفات أدبية صرفة ، كما يستشهد بأبيات لعدد من الشعراء ابتداءاً من العصر الجاهلي الى القرن الخامس عشر ... وقد يلاحظ أحيانا لدى ابن ماجد رغم اطلاعه الواسع في محيط الأدب وجود بعض الألفاظ العامّية والخروج على الفصيح ، بيد ان هذه ظاهرة عادية بالنسبة للعصر والوسط الذي عاش فيه . واولئ بنا ان نعجب لارتفاع مستوى اسلوبه في الكتابة...).(17)
هذا ما قاله كراتشفو فسكي بُعيد الحرب العالمية الاولى عن ثقافة ابن ماجد ومع ان تلميذه شومو فسكي يحكم على شعر ابن ماجد ونثره بالضعف لانصباب اهتمام المستشرق على الأراجيز الثلاث ، الا انه أيّد ما قاله استاذه عن سعة ثقافة ابن ماجد وأضاف اسماء مصنفات علمية وادبية اخرى أفاد منها ابن ماجد فوائد كثيرة كما أضاف اسماء شعراء مشاهير استشهد بشعرهم لم يذكرهم كراتشو فسكي . ومما قاله شومو فسكي في هذا الصدد:

(ويتبين من تحليل الموضوعات ان ابن ماجد كان الى جانب انجذابه الى البحث العلمي ذا معرفة واطلاع واسع في ميادين غير تخصصية. فكانت معرفته العامة واسعة جدا ، وكان يقف في المستوى التقليدي المطلوب من المتعلم العربي وعن هذا تتكلم الاسماء والمؤلفات التي يسيطر عليها. ففي احد الفصول يذكر خمسة عشر شاعراً معروفاً من عصر ما قبل وبعد الاسلام من بينهم امرؤ القيس ومهلهل بن ربيعة وعنترة ابن شداد وعمر بن ابي ربيعة المخزومي والحسن بن هانئ (ابو نؤاس).. وعبد الله بن المعتز...

ويعتمد على كتاب (جمهرة الامثال) لابي هلال العسكري (1005م) وكتاب المشترك لشهاب الدين الياقوتي ...الخ (يقصد ياقوت) وكل هذا يوضح المطالب العالية التي وضعها ابن ماجد لنفسه كانسان خرج بعيداً عن الاطارالضيق لمطالب مهنته) (18).

هذا نص كلام شومو فسكي وقد اسقطنا منه تفاصيل تتضمن اسماء مصنفات علمية سبق ان اشرنا الى عدد منها.

وكان المستشرق الفرنسي فرّان قد سبق كراتشو فسكي وتلميذه الى ملاحظة سعة ثقافة ابن ماجد العامة والادبية , وهو أول من أشار الى علائم الضعف في شعره . وقد تشبث شومو فسكي بهذا القول وسحبه على كل شعره ونثره وفصّل الكلام في ذلك بعض التفصيل وبالغ مبالغة واضحة لانه لم يلق نظرةً فاحصةً على عامة شعره ولم يفطن الى مواطن الاجادة ومواضعها . والقول بضعف شعر شاعر استناداً الى مواضع الاخطاء النحوية واللغوية والعروضية وغيرها لا يبرر اهمال المواطن التي يجيد فيها وهي في الأعم الأغلب أعني مواطن الاجادة تقع خارج اطار الشعر التعليمي لا سيما خارج نطاق الأراجيز المنظومة في علوم البحار و الملاحة الخاضعة لضغوط فنية وثقافية ولغوية واجتماعية بحكم اعدادها لرجال مهنين ومن أشباه الاميين هدفهم الحفظ والتعلم لا التثقف والتأدب وطلب الفصاحة والبلاغة والابداع .

ولكن المستشرق الروسي أنصف ابن ماجد عندما توسع ايضا في تبيان مزايا لغته التي أشار اليها المستشرق الفرنسي ايضا فقال ان اشعاره تزخر بمصطلحات علمية فلكية وبحرية وملاحية وجغرافية .و قد افاد د. انور عبد العليم من ملاحظات اولئك وهؤلاء وخاصة المستشرق الروسي شومو فسكي فأجملها بقوله:

(وبهذه المناسبة يرى بعض المستشرقين ان كتابات ابن ماجد صعبة شاقة كالرموز تحتاج الى مفاتيح لحلها ، وهم يعنون بذلك أراجيزه التي ضمّنها قياساته الفلكية وتعبيراته الملاحية على نحو ما فعل ابن مالك في الالفية . ولهم عذرهم في ذلك.. والواقع ان دراسة ابن ماجد دراسة مجدية لتحتاج الى المام بكثير من فنون البحر والملاحة مما لا يتيسّر للكثير من طلاب الدراسات الانسانية كما انها لتحتاج في نفس الوقت الى معرفة باصول

الكلمات والمصطلحات الملاحية التي استعملها ابن ماجد وسليمان المهدي؟ وامثالهما من ملاحي المحيط الهندي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر بعد الميلاد. وبعض هذه الكلمات يرجع الى لغات فارسية او هندية او سواحلية او جاوية. وقد يسّر هذا الامر الاخير للباحثين بعض التيسير لتلك الدراسات التي أجراها جابرييل فرّان المستشرق الفرنسي في مطلع هذا القرن).. ثم ان دراسة ابن ماجد لتحتاج ايضا الى تحقيق لمواقع الأمكنة والبلدان التي ورد ذكرها في كتاباته وفي مرشداته الملاحية. واخيرا فلا تتم هذه الدراسه الا بمعرفة ادوات الملاحة وآلاتها التي كانت مستعملة عند العرب في ذلك الوقت وكذلك معرفة اسماء النجوم والكواكب التي رصدها ومدلولاتها الحديثة.

وثمة سبب آخر نراه جديرا بالذكر في معرض صعوبة المادة العلمية لابن ماجد ، ويتلخص في ان بعض الكلمات الاصلية للمؤلف قد أصابها التصحيف على ايدي من نقلوا مخطوطاته ممن قد لا يكون له كبير دراية بالمادة المنقولة. ولا ادلّ على ذلك من ان النسخة التي بين ايدينا من كتاب (الفوائد) قد كتبت بعد نحو قرن من تاريخ كتابة المخطوط الاصلي للمؤلف..

على ان عدم تقيد ابن ماجد بالوزن والقافية في شعره (أي قسم من شعره) او بقواعد الاعراب لايعني من ناحية اخرى انه كان قليل الحظ من الثقافة (الادبية) وتدل كتاباته على اطلاع واسع وإلمام بكتب وآثار من سبقوه ليس فقط بالنسبة لمؤلفات الجغرافيا الفلكية والجغرافيا الرياضية، بل ايضا بالنسبة لكتب الادب والاشعار ، فهو يستشهد في كتاب الفوائد مثلاً بأبيات من معلقة امرئ القيس ومعلقة عمرو بن كلثوم و (شعر) المهلهل من شعراء العصر الجاهلي وكذلك بأبيات من شعر عمر بن ابي ربيعة وابي نؤاس والطغرائي وغيرهم..الخ)(19)

وقد سبق ان أشرنا الى هذا كله ونعيد ما أكدناه حول ما أشاعه نسّاخ المخطوطات الماجدية التي وصلت الينا ونضيف الى انهم كانوا ممن ينسخون كتب العلوم او ممن يشتغلون بها من غير المتخصصين المتبحرين فيها ، ويشبهم في هذا الى حد ما الذين كتبوا عن ابن ماجد من المستشرقين الذين يصعب عليهم ادراك ما في النص من جمال فني او تذوق ما فيه من حلاوة التعبير وبراعة التصوير. واذا كان فيهم من له حظ من هذا فشغله

الشاغل دراسة الجانب العلمي لا الأدبي . والاشعار التي ترقى الى مستويات شعرية آعلى من مستوى النظم في مـعظم آراجيزه التعليمية كثيرة جدا ومعظمها يرد في التعليقات والشروح والاستطرادات الادبية؛ ونصيب كتاب(الفوائد) منها اكثر من غيره لآنه منثور يتوزع على فصول مختلفة ويتناول موضـوعات تتيح لمؤلفها فرص الشرح والتفسير والاستطراد والاستشهاد بشعره وشعر غيره .

اقرأ معي قوله وهو يذكر نجم العواء القريب من السماكين وينسب اليه النحس ولاحظ كيف يمزج هذا المعنى بمعاني الخمر والغزل واصفاً الابيات بانها من احسن ما قال:

حضرَ المدامُ ومُنيتـي والمـاءُ فلمـا العَذول وعذلُـهُ إغراءُ
أين الملامُ من المدام وشربهـا بمهفهفٍ مــا ذا وذاك سواءُ
بالماء يحيـا كل غصنٍ نـاظرٍ وكذا الملاحُ حيـاتهنّ المـاءُ
إنّي وفيتُ لمـن أُلامُ بـه ولـو قيل الغواني مـا لهنّ وفـاءُ
لا غروَ إن ملكَ الحبيبُ مقاودي هذا السماك تقودهُ العَوّاءُ(20)

ثم عقب قائلاً: (وقال فيه عنترة في لاميته):

ان كنتُ من عدد العبيد فهِمّتي فوق الثُريا والسمــاكِ الاعزلِ

وقال الطغرائي في لامية العجم:

وإن علاني مَن دوني فلا عجبٌ لي اسوةٌ بانحطاط الشمسِ عن زحلِ

واستطرد قائلاً:(يتمثل فيمن علاه وهو دونه حتى تمثّل بالشمس وزحل لانه فوقها وهي أنور منه وأظهر . وكذلك العواء والسماك ، والعرب يتمثلون بكل شئ يدخل في امثالهم بالسماك بالرفعة ، ويتمثلون في العز بالعنقاء فقالوا أعز من العنقاء، وأضخم
من فيل ، وأسمع من فرَس في ظلماء وغلس ، وأنوم من فهد ، وأيقظ من ذيب لأنه ينام بعينٍ واحدة حتى يشبع نوماً فيطلقها ويغمض الاخرى وينام بها فيستريح بالنائمة ويحترس باليقظانة وهو على ذلك وقيل فيه نظماً حسناً:

ونمتُ كنومِ الذيبِ من ذي خفيضةٍ اكلتُ طعامـاً دونـه وهو جـائعُ

ينـامُ بـاحدى مقلتيـهِ ويتقـي بالاخرى الأعادي فهو يقظانُ هاجعُ

وقالوا فلان أكرم من ديك ، وأعلم من نمل وأشرب من رمل وأحذر من غراب) .. ويمضي في ذكر طائفة من الامثال الاخرى يستخرجها من جمهرة الامثال للعسكري كما قال وقد يتوقف لينقل حكاية تفسر بعضها ، ثم يعود بعدها ليقول ومن نظم مصنف الكتاب في السماكين قوله في قصيدة طويلة:

تقدمتُ عند العـاقبينِ ومن يكن أخا الحزمِ في ليلِ الدياجِي تقدّمـا
اذا كنتُ في البحارِ فالكلّ يهتدي ونورُ علومي كالسماكينِ في السما
ويُنكرُ علمي جاهلٌ غير عـالمٍ وإلا حسوداً مبغضـاً او بـهِ عمى

وبعد أن يأتي بقطعة اخرى من شعره ينتقد بها نحوياً متشاعراً يشرح معنى السماك الأعزل والسماك الرامح ويستشهد ببيتين مشهورين للمعرّي دون أن يذكر اسمه فيقول(وقال بعض العرب):

لا تظلمنّ بغيـر حـظٍ رتبـةً قلـمُ البليغِ بغيـرِ خطٍ مغـزلُ
سكنَ السماكان السماء كلاهما هذا لـه رمحٌ وهذا اعزلُ(21)

وبعد ان يبسط ما يجب معرفته عن النجوم والاستهداء بها يعود الى ما توحي به دلالاتها الشائعة للشعراء والادباء فيقول: (وكثير من النجوم ممزوجات بين سعد ونحس ، وكذلك بعض الاشياء يصلحها المزج خصوصاً في الراح كما قال مصنف الكتاب في اشعاره الفائقة الرايقة في الراح في عصر الشبيبة ، من قوله ذلك البيتان):

صفراءُ ساطعة كالنـار لم أرَهـا في الكأس الا نَفت همّي وأحزاني
أصلحتُها بقراح الماء من حذري وكـيف تصلـح امـواهٌ لنيرانِ؟

ثم يذكر بيتين آخرين في وصف الخمرة ومزجها ويشبهها بكوكب عطارد ذاكراً انها توصف بالزبان . ويتوقف ليشرح معنى الزبَن والصبَن فيقول: (والزبَن والصبَن بمعنى واحد وهو الرفع ، وسُمّي الصابون صابوناً لانه يُصبن الوسخ من الثوب أي يرفعه وقال عمرو بن كلثوم في معلقته:

صبنتِ الكـأس عنّي أم عمروٍ وكان الكأس مجراها اليمينا
ومـا شر الثلاثةِ أمّ عمـروٍ لصاحبك الذي لاتستصحبينا ؟

ويسوق الحكايات التي تناقلها الرواة عن سبب قول عمرو ابن كلثوم هذين البيتين وليس هنا مكان سردها (22). ولا يترك طريقته في عرض معارفه عن النجوم مازجاً مباحث الفلك بموضوعات الأدب. فبعد ورقات قليلة يذكر نجمين من نجوم المجرة هما الصادر والوارد قائلا انهما (لا يثبت لهما قياس يفعل به الانسان ثم يندرس بعد موته ثم يقول : وبهما تضرب الامثال واحسن ما قيل فيهما قول المصنف لنفسه شعراً):

لقد كنتُ قبلَ اليوم مملوكَ شهوةٍ وقد صرتُ حراً والهوى صارَ خادمي
كتابي جليسي والجميلةُ متجري وعقلي مشيري والفتاكةُ صارمي
ولستُ أُبالي حاسداً او مهاجراً وقائلَ بهتانٍ نفتهُ مكارمي
فقولوا لمن لا يعرف الناس انني قرينُ رجالٍ لا قرين البهائمِ
ألم ترَ سير النيّرات مخالفاً لشهرتها سير السها والنعايمِ(23)

يعني بالجميلة الفعل الجميل وبالمهاجر في البيت الثالث قائل الهُجر أي الشتم الفاحش ، وبالنعايم او النعائم نجوم يُستهدى بها كما ذكر ابن ماجد قبل استشهاده بهذا الشعر من نظمه ، والنيّرات هي النجوم السبع السيارة ، والنعايم هي الثوابت (غير السيارة). والقطعة كلها في الحكمة او الموعظة الشعرية ولغتها سهلة جداً الا انها فصيحة وطابع العصر اللغوي واضح في البيت الاول وعبارة (مملوك شهوة) و(الهوى صار خادمي) لا تخلو من طرافة ونصيب من الذوق الفني وطابع البيت الاخير العلمي - الادبي يُشير الى ابن ماجد الشاعر العالم بالافلاك والنجوم ، العارف بوسائل الاستفادة الفنية من صفاتها الحقيقية والمُتخيَّلة ومن دلالاتها الصحيحة والوهمية . ولا يُنكر ان صاحبنا لم تهيئ له مهنتهُ ومشاغلها واعباؤها في ظروف عصره المتاخر للوصول الى شرفات الجنائن الشعرية المعلقة التي صعد اليها الشعراء المبدعون القادرون على رسم الصور الرائعة التي توحي بها نجوم السماء على نحو قول ابي نؤاس الشهير:

في كؤوسٍ كأنهنّ نجومٌ دائراتٌ بروجها ايدينا
طالعاتٌ مع السقاةِ علينا فاذا ما غربنَ يغرُبنَ فينا

الا ان عجز ابن ماجد وشعراء عصره عن الارتقاء الى القمم والسفوح العاليةالتي يسطع فوقها شعر النوابغ لا يبرر نفيه نفياً مؤبداً كما أشرنا من حلبات الشعر والحكم عليه بالاقامة الجبرية المؤبدة في مدرسة الشعر

التعليمي . ومما لفت انظارنا في شعره انه لا يكتفي او لا يقنع بمزج صفات النجوم ودلالاتها بوصف الخمر وبمعاني الغزل وصوره وخيالاته فنجده ينحرف بموجة الغزل المذكر التي اشتدت في العصور المتأخرة فيعرض علينا نمطاً اخراً من صور هذا المزج اذا دعت المناسبة ، فعند كلامه العلمي عن العيّوق قال: (والعيّوق نجم درّي من القدر الاول يسمى باري الثُريّا واحسن ما قيل فيه قول المصنف (يعني نفسه) شعرا:

شهَدَ اليراعُ بأنّ خطَّ عذارِهِ يخفى لِبدرِ الليلِ ثم نهارِهِ
وأرى على وجه الحبيبِ كتابةً كدبيب نملٍ سالَ فوق عِذارِهِ
هذا دليلٌ انه نور الملأ و(النيّرين) خُسِفن من انوراهِ
تصبو القلوب اذا تمايس مقبلاً فرحاً به وتهيم في اِدبارِهِ
دانٍ تلاحظهُ العيون ونيله في البعد كالنجم الشهير وبارِهِ

فالنجم هو الثريا والبار هو العيوق ويسمى بأسماء كثيرة ..... (24)

ويحسن أن ندرج هنا أيضاً من شعره هذه الابيات استشهد به عند ذكر (الناجد) قال : (واما في الناجد البرّاق بين التبر والجوزاء وهو من المرازم الاربعه اللواتي حوالي الجوزاء ، وهو نجم ابيض كبير خفّاق للغايه فقد قلنا فيه بعض الاقوال في معاتباتنا في ايام الشباب شعرا) :

ما قاطعوكَ عن العتابِ ورُسلهِ إلاّ وليس لهم بوصلك باقي
بثّوا الغرامَ عليَّ دون عتابهم إنّ العتابَ حدائقُ العشّاقِ
وإذا العذول وشا وأطرق ذكرهم بملامةٍ طربوا على الاطراقِ
خفقان قلبي عند ذكر أحبّتي وضياؤه كالناجدِ البّراقِ(25)

وعند ذكر عطارد وبعض النجوم السياره كالمشتري والزهره والمريخ يقول:(فقلنا فيهم نظماً من قصيدة نظمناها في عصر الشباب) :

عذولي لامَ فيك فما أجنّه فأعكس بالوصالِ قبيحَ ظنّه
ودِر كأسَ المُدام عليّ صرفاً وغنِّ عليه أصواتاً بغُنّه
وغازلني وهاتِ وخُذ وكاشف بما تُخفي القاوبُ وماتُكِنّه
لتعلمَ كيفَ أفعالُ الهوى بي وأشواقٌ تجاذبني الأعنّه
فكم أمضى الهوى بي للمواضي وكم سنَّ الهوى بي في الأسِنّه
فاسجدني؟ مع الأبريقِ شوقاً لمن جمع الشتاتَ بغيرِ مِنّه

فمـا الدنيـا سواك وشمس راحٍ على عصرِ الشبابِ وعصرٍمُكنه
عطـاردُهـا وزُهرتهـا لديهـا عكوفاً وهي تشرِقُ بينهنّ (26)

وفي موضعٍ آخر يقول بعد أن يفخر بسعة علمه وتفوقه على غيره في معرفة النجوم :(وقد قلت على لسان الحال في النجوم شعرا) :

هّذي النجومُ اشتكت منّي لخالقهـا تقـولُ هذا جفـانـا فـي توقـده ِ؟
قد كان يوصلنا طول الزمـان وقد كـانت منـافعُنـا جمـاً علـى يـده ِ
وكيف لايشتكي من لم يجد عوضاً بالشيء والشيءُ منسوبٌ لواجدهِ(27)

ومما يحسن الاستشهاد به ايضا من شعره فخره بعلمه ونظمه وهو كثير في أراجيزه نختار منه هذه الابيات الثلاثة لان افتخاره فيها يشيد بما يتجلى بها من نظم ونثر (ادب) ومن علم بالبحار وبالنجوم قال:

يفوتُك غفلةً نظمي ونثـري وتـزعـمُ انّ لـيلكَ لـو نـهـارِ ِ
فـوالحرمين لـم تظفر بعلمٍ سَرّكَ في البحـار ِ وفـي الـدراري
اذا ما الرامياتُ رمتكَ فاعلق بتصنيفي وحكمي في المجاري (28)

وهذه قطعة اخرى حلوة تصور احواله والحياة التي يحياها ، حياة الملاّح القائد التي ألِفت اخطار البحر وعواصفه ويستهلها بالشكوى من الاقامة بين اصحاب لا يعرفون فضله ولا يسألون عنه (لايقتفون اثري) ويمزج فيها بين الشكوى من الاصدقاء وهو من أهم موضوعات ما يسمى بأدب الصداقة والصديق وبين ما تتميز به حياته وظروفها. قال:

اقامتي بينَ من لا يقتفي أثري أمَرُّ من خطرات ِالبحرِ في المطرِ ِ
دَعني بفُلكٍ أُقاسيها على خطرٍ فأنها خيرُ من صحب على خطر ِ
طَوراً أجوزُ بها من بين مشكلةٍ وتارةً ألتهي بالأُنس ِ والسهر ِ
ان كان لا بُدّ من صحبٍ على سفرٍ ومن ركوبٍ فقد جينا على قدر ِ
ذي آية الله ِمركوبي ومصطحبي ربٌ كريمُ وبيت الله من سفري
أنفقتُ عمري على علمٍ عُرفت به ِ فازددتُ بالعلمِ توقيري على كِبر ِ
لو لم أكن لهما اهلاً لمـا عنيت بيَ الملوكُ وهذا غاية الوطرِ(29)

فالاقامة بين أصحاب لا يعجبونه او لا ينسجم وإياهم لأنهم لا يعرفون فضله ولا يسألون عنه أشد من اظطراب البحر في مطر عاصف او عاصفة ممطرة ، وهي من أشد ما يهدد السفن في البحر. دعني اذن أُقاسي هذا

الخطر فهو خير من صاحب لا يؤتمن لأن البحر أخطاره مكشوفة معروفة لا تنافق ولا تداجي ولا تفاجئك بالخيانة والغدر ، أما سفينتي فتارةً أُذلل بها مشكلة من المشكلات ويعني بها هنا شدائد البحر وأخطاره وطوراً أُلهي نفسي بالأنس والسهر وإن كان لابد من صحاب سفر فذاك قدر لا قدرة لنا على رده فلنتحمله ونصبر عليه ونتكل في مركبا ومصحبنا على الرب الكريم رب البيت الذي اعتدنا السفر اليه ، لقد قضيت عمري في طلب العلم فازددت به وقارا ولو لم أكن أهلا لها لما اهتمت بي الملوك فأكرمتني وأي وطر او أية غاية افضل من هذه الغاية ، غاية الحظوة عند الملوك؟

وأقُُل من الطريف أن نختم هذه المختارات من شعر ابن ماجد بقصيدة نونيّة عرض فيها مذهبه في مجابهة الزمان ، وهو مذهب الربّان الذي عركته الحياة وعرف الناس وخبرهم واقتنع بأن خير ما يُجابه به فساد الزمان والناس أن يتناسى الانسان ذلك وأن ينصرف الى التمتع بذات جمال في الرابعة عشر من عمرها (وفَت لها من بعد ست ثمان) وأن يشرب الراح ويستمع الى النغم ويستمتع بجمال الطبيعة متمثلاً في تغريد القمري على الأغصان والورد الذي يورد خدود الفلا والكرم المعرش بأوراقه الذي اختاره الندمان مكانا للأنس واستيفاء لذات الصبا باحتساء ماء الكرم والاحاديث الرائعة (ماء اللسان) وقطف رمان الصدور للناعمات اللدان حتى قلت ما لم يقله الفلاني الفلان واستمتعت بنهمة رائعة يغمرنا حسنها جميعا بمشاعر لذيذة طيبة ، أمراة بارعة الجمال رشيقة كأنها الفضة في بياضها والحلي الذهبية ولعله يعني شعرها كأنه العسجد البراق وحولنا او بعيداً عنا قمم الاشجار واغصانها يهزها النسيم فتهتز اوراقها فكأنها تخفق كخفوق قلب الجبان. ألا تدل هذه الصور على نوع من الفلسفة او التفلسف الواقعي الذي يتجه اليه في الأعم الأغلب من هم من طراز ابن ماجد الربّان الذي ينصح بتقبُّل صروف الزمان وتقلبات الحياة بتجاهلها وتناسيها والانصراف الى المتعة وليكن بعد ذلك مايكون. قال: والآن قد تغير ذلك الاصطلاح وتلك المواسم ولا بقى من التجار من يعرف ويِِسأل العارفين عند الضرورة لقلّة الفوايد ، وقد خانهم الزمان كما قال المصنف شعرا:

يا ليلةً قد غارَ منها الزمان حيث تنادي بالأمان الأمـان
قُم بي على ما نشتهي آمنـاً وبالذي تهوى عليّ الضمـان

إليك ذات الحسن مكمولةً وَفَت لها من بعد ستِّ ثمان
والراح والأوتار معتدةٌ ولاح لي مجرى سعودي وبان(*)
وغرّد القمريّ على غصنهِ فماسَ مطروباً وحيّا ولان
وورّدَ الوردُ خدود الفلا وأزهر الروضُ كزهر الجنانِ
وعرّشَ الكرمُ بأوراقه وقالت الندمان: هذا المكان
فقُمت استوفي لذيذَ الصبا بماءِ كرمٍ وبماءِ اللسان
وأقطفُ الرمّان من صدرها من شجراتٍ ناعماتٍ لدان
ومنتهى الاشجارِ تومي لنا خوافقاً تشبهُ قلبَ الجبان
حتى اتى الفجرُ باصباحهِ واعلن الداعي بصوت الاذان
أصابنا سهمٌ بتفريقنا وأي شيءٍ لم يُصِبهُ الزّمان(30)

ألا تدل هذه القطعة على نصيب من الموهبة الشعرية والحس الفني وعلى معرفة حسنة بالموضوعات والخواطر التي يدور عليها هذا النوع من الشعر ، وبالطرائق التي درج عليها في وصل هذه الموضوعات ببعضها والانتقال من موضوع الى اخر ومن صورة الى صورة ؟

(*) في المخطوطة المصورة لكتاب الفوائد (ولاح عن فخري) وهي لا تناسب السياق والارجح ان ذلك تصحيف وقد اثبتنا ما رجحنا صحته

أجل ..... ان ابن ماجد هنا شاعر متابع او مقلد لا مبتكر وليس في لغته الشعرية وفي معانيه وصوره سحر الابداع والاصالة والاثارة الفنية ولكن ألم يكن معظم شعراء عصره من المتابعين والمقلدين ؟ صحيح ان اسلوبه هنا في منتهى السهولة واللين حتى انه يلامس اللغة الدارجة في بعض جمله وعباراته كقوله - حتى تنادي بالامان الامان- في البيت الاول ، وقوله - وبالذي تهوى عليّ الضمان – في البيت الثاني ولعلها من تأثير لغة التجارة والتجار لكثرة او طول مخالطته لهم بحكم مهنته ، وقوله– وأعلن الداعي بصوت الاذان – في البيت الثاني عشر. إلا ان هذه الجمل والعبارات صحيحة وإن كانت من الفصيح المفرط في السهولة لامن العامي المبتذل اوالمرذول .

أما الابيات الاخرى ففيها تعبير شعري أجمل ولغة شعرية أرقى لأن ابن ماجد يستعين ببعض فنون المجاز من غير تكلف ويرسم صور جميلة تتراءى في سياق لا يخلو من سلامة الذوق ورهافة الحس وبأسلوب بعيد عن

موجة التصنع البديعي والزركشة اللفظية التي جرفت الشعر والنثر في العصور المتأخرة. والحق اننا لا نجد في نظمه التعليمي وغير التعليمي ميلاً الى استعمال الصيغ البديعية الكثيرة الشائعة ، وهو من جهة اخرى لا يهبط الى العامية كما قلنا ولكنه لا يأنف من الاقتراب منها. فهو يبيح لاسلوبه حرية تصرف واسعة تجرهُ الى التورط في أخطاء نحوية وصرفية والى اللجوء احيانا الى الضرورات الشعرية المستقبحة وقلة الاكتراث بالعلل العروضية.. وليس كل هذا من فعل النسّاخ ، ولا هو ناجم عن جهل ابن ماجد بقواعد النحو واللغة والعروض ، لان أخطاءه قليلة وغير مكررة في القطعة الواحدة ، ولا في عموم شعره ، وهي اكثر في الاراجيز التعليمية. بينما نجد قسما كبيرا من شعره غير التعليمي تندر فيه الاخطاء فإن وجد بعضها فالراجح انها من عمل النساخ وحفاظ شعره. ولا أرتاب في ان غير قليل منها تقع تبعته على الشاعر نفسه لأنه من انصار التساهل في لغة الشعر ولاسيما التعليمي منه كما قلت. فهو إذن يصدر عن موقف فني- لغوي معين يجعل الغاية والفائدة العملية والاستعمال ومستوى المستفيدين من شعره مبرراً لقبول الاخطاء قصداً وعمداً وخاصةً في القوافي. وهذا الموقف ازاء لغة الشعر يتبنّاه ابن ماجد عن وعي وادراك بدليل ردّه على احد النحاة الذين انتقدوه في ابيات يقول فيها :

عن نحوكم قدمي ذا غير منصرفٍ والنحوُ في حكمةِ الأقـدام ينصرفُ
إن كان اوزانُ فعلي ثم معرفتـي قد أوجبَ المنع منع الكسرِ لي شرفُ
اسمي كشمس الضحى أودعتُه درراً في النظم تحكي نظام الدّرِ يأتلـفُ
الشعرُ ما شاع في شامٍ وفي يمنٍ مورخ ما لهُ حـدٌ ولا طـــرفُ
اذا اتــاني الفتى بالنظم مفتـخراً فنظمـــهُ هو ذاك الزائرُ العرفُ(*)

وجملة القول ان الشواهد الكثيرة التي اخترناها من شعره الذي وصل الينا، وكثرة اراجيزه العلمية ، وسعة ثقافته الادبية تدل على انه شاعر جدير بأن يوضع بين شعراء القرن التاسع للهجرة. لا نريد ان نرفعه الى طبقة المجيدين المبدعين وهم عملة نادرة جدا في زمانه ، ولا أن نهبط به لنحشره مع شعراء العامية ، ولا أن نصُرّ على ابقائه بين العلماء اصحاب الشعر التعليمي ليس غير، كل ما نريده هو انصافه ووضعه بين امثاله من الشعراء

الثانويين والاعتراف بأنه شاعر جدير بالدراسة اضافةً الى انه عالم قدير بل علم من اعلام زمانه .
ولا أعدو الحقيقة اذا قلت ان شعره التعليمي يمتاز عن اكثر انواع هذا الشعر بالطرافة والجاذبية والتشويق لغرابة موضوعاته وتنوعها واتصالها بعناصر الطبيعة كالنجوم والاهتداء بها ، والرياح والاستعانة بها والبحار وصفاتها واخطارها وغرائبها والجزر والسواحل واحوالها وسكانها وحيوانها ونباتها والسفن وانواعها والملاحة والملاحين والتجارة والتجار... الخ

(*) متن الشطر الثاني مضطرب وقد اثبتناه اجتهادا
ولكن طبيعة الموضوعات وحدها لاتكفي للاجادة في وصفها والافادة العلمية وغير العلمية منها اذا لم تكن للناظم مواهب فنية وذخائر لغوية وأدبية ودراية ومران على النظم وهذا ما كان عند ابن ماجد. فقارئ أراجيزه يلتذ بقراءتها ويستأنس بما فيها من مواد علمية طريفة وصور وأوصاف متنوعة جذابة. وكل هذا لا نجده في أراجيز النحو والفقه والفلسفة وغيرها من العلوم المجردة الجافة. ومع انه التزم بالاعراف والسنن التقليدية في هذا الشعر كأفتتاحه بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله (ص) واختتامها بذلك ايضا الا انه كان يطيل أحياناً واحيانا ينقل حمده وسلامه وامتداحه للرسول الكريم (ص) ويقرن ذلك ويمزجه بالحكم والوصايا في كثير من الاحيان . وقد يترك ذلك ويفتتحها بالغزل التقليدي ولا سيما اذا كان الشعر المنظوم من القصيد لا من الاراجيز.
ولعل هذه المزايا في شعر ابن ماجد التعليمي هي التي أثارت انتباه الاستاذ حسن كامل الصيرفي ودفعته الى كتابة مقال بعنوان الملاّح الشاعر لم يذكر فيه من شعره مطالع أراجيزه التي نشرها فرّان, ولم يقل عن شعره وشاعريته سوى جملة او عبارة واحدة وهي ان لابن ماجد شعراً رقيقا. وقد

أعاد انور عبد العليم النصوص القليلة أعني فواتح قسم من الاراجيز التي ذكرها الصيرفي في مقاله ولم يضف الى ذلك شيئا يستحق الذكر من نصوص شعره. واليك قول الصيرفي في مقاله سالف الذكر:

(وهو الى ذلك شاعر استغلّ موهبته في نظم القصائد والاراجيز التي ضمّنها كل اختباراته. وشعره رقيق ولكنه يضعف حين الاصطلاحات الفنية (يعني العلمية) ويختل وزنه احيانا او يضطر الى الوقوع في اخطاء صرفية ولكنه مع ذلك لون جديد في الادب العربي).

واليك ارجوزته المسماة (حاوية الاختصار في علوم علم البحار) وقد رتبها على احد عشر فصلا في بيان مايجب على البحارة معرفته عن المنازل والاخنان وقواعد الباشات والنيروز العربي والسلطاني ومعرفة السنين العربية والقبطية والرومية والفارسية ودائرة بر العرب ومجموع ابياتها 1035 يبدأها بقوله:

الحمدُ للخالقِ ذي الجلال القاهرِ الفردِ بلا مثالِ

ثم ارجوزته (المُعرِّبة التي عرّبت الخليج البربري وصححت قياسه وهي من رأس حافوني الى باب المندم (المندب) واشتقاق ديرة المطالقة لبر العرب وصفات مجاري زيلع. اولها

يا سائلي عن صفة المجاري ثم قياس الأنجم الدراري

وعدد ابياتها 177.

ثم (قبلة الاسلام في جميع الدنيا) قال في مقدمتها :

(لما رأيت الناس يميلون عن معرفة القبلة ومساجدهم مائلة عن قصد القبلة وليس لم اصل علم يعرفون به القبلة خصوصا في المدن اللواتي بقرب البحر وجزره التي يمر بها المسافر ، نظمت هذه الارجوزة ، واقمتها باوضح الادلة واسهلها ...) وقد بدأها بقوله:

بأسـم الاله المستعان ابتدي مُصلياً على النبي احمدِ
ليسهلَ التشديد من مـرامي في نظم درّ قبلةِ الاسلامِ

وابياتها295

وتليها ارجوزة (بر العرب في خليج فارس) وهية 253 بيتاً استهلها بقوله:

يا طالعاً من آخر الفراتِ والبصرةِ الفيحاءِ خُذ وصاتي

ثم أرجوزة في قسمة (الجمّة) على أنجم بنات نعش وعدتها 68 بيتا بين فيها كيف يستدل رجال البحر (او النواتية) وغيرهم على مسالك السير في البحار ، ومطلعها:

يا قاسم الارزاق لم ينسَ أحد فردٌ غياث المستغيثين أحد

وبعدها قصيدة سماها (كنز المعالمة) وذخيرتهم في علم المجهولات في البحر والنجوم والبروج واسمائها واقطابها وعدد ابياتها 71 ، ومطلعها:

يا أيها الناس مهما شئمتوا قولوا الارض معلومةٌ والبحر مجهولُ

ثم أرجوزة في النتخات لبر الهند وبر العرب. وهي 255 بيتاً ، وقد جعل مطلعها:

يا طالبَ النتخة بالحقائق من كل برٍ بقياس فائق

فقصيدته المسماة (ميمية الابدال) واولها :

سهاد حكت عيني عصارة عندم وكل نجوم الليل تسأل عن دمي

ثم (المخمسة) وهي 51 بيتاً نظمها عام 906 ذكر فيها الكواكب التي يهتدي بها الملاحون. وتليها قصيدة نظمها في عدة الاشهر الرومية وعدد ابياتها 13 بيتاً.

ثم القصيدة المسماة (ضريبة الضرائب) وابياتها 192 بيتا:

شبابٌ برأس اعجب الناس من أمري أتاني عقيب الشيبِ في آخر العمرِ

تليها ارجوزة منسوبة لعلي بن ابي طالب في معرفة المنازل وحقيقتها في السماء واشكالها وعددها وهي مؤلفة من 48 بيتا .

ثم القصيدة المكية التي وصف فيها الطريق من مكة لجدة الى فرتك لقاليقوط والدبيل وكنكن وجزرات الاطواح وهرمز وابياتها 172 ، ومطلعها:

فؤادي أسيرُ الحي من شعبِ عامرٍ أحومُ عليها بالدجى والهواجرِ

فالقصيدة المسماة (نادرة الابدال) في الواقع وذبان البوق. وهي 56 بيتاً وتتلوها قصيدته البائية المسمات (الذهبية) وابياتها 11 . واولها:

بدأتُ بسم اللهِ ربي وخالقي ومستخلفي في جيرتي وأقاربي

فقد ختمت هذه المجموعة بثمانية فصول نثرية زاخرة بالمصطلحات الملاحية. هذا ولابن ماجد أرجوزة سماها (السبعية) في ذكر سبعة علوم من علوم البحار ، ابياتها 305 ومطلعها:

تبارك َالربُّ الذي هدانا في بحرهِ المسجورِ اذ أنجانا

ثم (الهادية) في علم البحر، وعدد ابياتها 155 ومطلعها:

الحمد لله ِالحسيبِ الهادي في برّهِ والبحر ِ للرشادِ

وقصيدة في علم البحر ابياتها 33 ومطلعها:

خليليّ هيّا واسمعا درّ منطقي فلا عاشَ من يُخفي العلومَ ولا بقى

وهذه القصائد الثلاث الاخرى محفوظة بمكتبة باريس برقم 2559 ولها صورة شمسية في دار الكتب المصرية برقم395جغرافياً. وقد ذكر بروكلمان في ملحق الجزء الثاني من كتابه (تاريخ الآداب العربية) ص230 ان المستشرق الروسي اغناطيوس كراتشفوفسكي نشر في ليننجراد سنة 1937 ارجوزة لابن ماجد ، وقد أطلعنا في الجزء الاول من الكتاب الذي صدر عن اعمال كراتشفوفسكي سنة 1955 على صورة بالفوتوغرافية للورقة الاولى من هذه الارجوزة التي يذكر ناظمها في مقدمتها انها المسماة بالسفالية ومعناها يقتضي معرفة المجاري والقياسات من مليبار وكنكن والزنج وسفالة (وهي المعروفة بسفالة الزنج) والقُمُر وجزره ونوادر علوم جميع ما في تلك النواحي الى اخر الارض من الجنوب... الخ ويستهلها بقوله..

الحمدُ لله الذي انشأ الملا من عدم جلَّ تعالى وعلا

وله رسالة موجودة في الموصل اسمها (الميل). وفي فينّا رسالة عنوانها (فكرة الهموم والغموم والعطر المشموم في العلم المبارك المقسوم في العلامات والمسافات والنجوم).(31)

وواضح أن الصيرفي يسوق مطالع هذه الاراجيز للدلالة على تمكن ابن ماجد من النظم الجيد وان كان هذا النظم تعليمياً غير انه لم يُشر الى ذلك صراحةً. ولو قرأ كل ارجوزة بأمعان لوجد ان خواتم كثير منها افضل من مطالعها ، وانّ بين ابيات كل ارجوزة تقريبا ابيات جميلة فيها من جمال التعبير والتصوير ما يجعلها ترتفع عن مستوى الشعر التعليمي الساكن او الراكد الى مستوى او صعيد أعلى يتّسِم بشئ من الحركة والجمال الفني. مهما يكن فمقال الصيرفي وشواهده يمكن ان تُعد اول اعتراف يُدلي به ناقد عربي بشاعريّة ابن ماجد ولكنه اكتفى بالاشارة ولم يسمح له وقته او صفحات المجلة بالذهاب الى ابعد مما ذهب اليه.

اما انور عبد العليم فقد اعاد ما ذكره الصيرفي كما أشرنا واضاف بيتا او بيتين الى البيت الاول من بعض الاراجيز كما اورد فواتح الاراجيز التي اغفلها الصيرفي . فأرجوزة كنز المعالمة ومطلعها:

يا أيها الناس مهما شئمتوا قولوا الارض معلومة والبحر مجهولُ

اتبعه عبد العليم بالبيت الثاني وهو:

من أجل ذلك قالوا إنّه خطرٌ وراكبُ البحرِ مفقودٌ ومخبولُ

وذكر ايضا اول الارجوزة المخمسة التي اكتفى الصيرفي بالاشارة اليها. ومطلعها:

تأمّل وشاور واسهر الليلَ واعزمِ وحقِّق ودقِّقِ واحفظِ السرّ واكتمِ

واصبر واجمل ما سمعتَ فتسلمِ لتبقى رئيساً في الرجال مقدّمِ(*) (32)

(*) ضرورة مستقبحة

وخواتم اراجيزه أجمل من مطالعها في أحيان كثيرة كما في خاتمة قصيدته العلمية (الفائقة) كما سماها:

إن جاءكم احمقٌ قد غرّهُ مَزَنٌ له لسانٌ فنظمي ذو اللسانينِ

هذي النجوم وهذا البحرُ فاخترعوا مثلي والاّ فذا المزنُ الى اينِ(*)

ردّت هدايتُها أقوال ناقدهم كما يُردُّ جدالٌ بالصحيحينِ(**)

أثقلتَ نفسك يا من ذمَّها سفهاً وصرتَ اشغل بها من ذات نجبين(***)

شاب الذراعُ فقالوا لم فقلت لهم شيبُ ذراعيَ من رُقيا الذراعينِ

يمضي الشهابُ ولم تمضي مآثرُهُ مادامت الفُلكُ تجري في الجديدينِ

سمّيتها لأسودِ البحرِ فايقةً تهدي السبيل بنجمين عجيبينِ

فصَلِّ يا قايسَ النجم الغريب على محمدٍ ماترامى الفُلكُ جنبين(33)

والمزَن هنا الغرور والادعاء والزهو (وذات النجبين) قصتها معروفة كناية عمن يشغل نفسه طيلة الوقت بلا فائدة و(الذراعين) في البيت الرابع هما النجمان المعروفان و(الشهاب) الشاعر نفسه ابن ماجد فهو شهاب الدين احمد بن ماجد ترامى الفلك جنبين اهتزازه المستمر في البحر الى اليمين والى اليسار. وقلما نجد وصفا كهذا في مدح النبي (ص) فأبن ماجد يستعير كثيرا من الفاظ وصور شعره من البيئة البحرية وقد اجاد في مطلع قصيدته (القافيّة في معرفة المجهولات..!) وفي خاتمتها وقد مر بنا البيت الاول

وفاتحة القصيدة هنا في اربعة ابيات تدل على قابليته الادبية وسماحته وسعة افقه العلمي:

خليليّ هيّا واسمعا دُرّ منطقي فلا عاشَ مَن يُخفي العلومَ ولا بقي
فعنديَ من علمِ النجومِ درايةٌ لغيلان أعيى حصرُها والفرزدقِ
يُصدقني فيها ذوو الرصدِ الألى تقصَّوا على أفلاك غربٍ ومشرقِ
ويجهلُ قولي بل يشكُّ ويمتري به كلّ فدمٍ في البريَّةِ أحمقِ(34)

(*) ضرورة يختلف فيها العروضيون فمنهم من يجيزها ومنهم من لا يجيز كسر المبني على الفتح
(**) يقصد صحيح مسلم وصحيح البخاري
(***) ضرورة اخرى فاعراب اشعل يوجب النصب

وفي خاتمتها يقول:

اليكم اسود البحر مني يتيمةً قد استُخرجت من بحريَ المتدفقِ فما
قالها غيري بعصري ولا اهتدى لها ابنُ سرايا في زمانِ ابن ارتُقِ
اذا حلّها شخصٌ من الناسِ فأعلموا لهُ الكمالُ الظاهرُ المتألّقِ
وإن حازَ معناها امرؤٌ في زمانهِ فذاكَ بِحلٍّ من قريضٍ ملفق

فالبيت الاول في فاتحة القصيدة لا تخفى جودته وحلاوة اسلوبه وحسن استعماله لصيغتي النداء والخطاب والانتقال الى الدعاء على الذي يخفي العلوم ولا ينفع الناس بها بالموت والفناء وتلك نظرة علمية انسانية جديرة بالاحترام والاجلال تُذكرنا بابي العلاء وبيتيه الشهيرين:

ولو اني حُبيتُ الخلدَ فرداً لما احببتُ بالخلدِ انفرادا
فلا هطلت عليّ ولا بأرضي سحائبُ ليس تنتظمُ البلادا.

اما البيت الثاني الذي يفخر فيه بدرايته في علم النجوم فيذكر في الشطر الثاني الشاعرين ذا الرمة والفرزدق الذين يعجزان كما قال عن حصر علمه الواسع على الرغم من قدرتهما الفائقة في نظم الشعر واحاطتهما بلغته وهذا يؤكد ما قلناه عن سعة ثقافته العلمية والادبية.

اما في الخاتمة فيبدو ان ابن سرايا من مشاهير البحارة الذين عاشوا في القرن الثامن لان ابن ماجد يشير الى ابن ارتق وزمانه, والاراتقة هم الذين

حكموا الجزيرة وشمالها في القرن الثامن الهجري وكانت عاصمتهم مدينة ماردين. وهم الذين امتدحهم وعاش في اكنافهم الشاعر صفي الدين الحلي الذي يوصف بانه آخر عمالقة الشعر العربي القديم. وتلي الابيات المذكورة ثلاثة ابيات يختم ثالثها القصيدة بالسلام والصلاة على الرسول الكريم (ص)

واعدادها اعداد شهر وعشرهِ كذلك جاءت كالعروس المقرطقِ
مهذبةً من كل عيبٍ يَشينُها نتيجةَ فكر ذاتَ حسنٍ ورونقِ
وصلِّ على مختارِ ربّي كُلّما تناوحَ طيرٌ من حمامٍ مُطوّقِ(35)

ولا حاجة للاشارة الى مافي الابيات في المقدمة والخاتمة من موهبة شعرية واضحة وتعبير متدفق ينبض بالحركة وتصوير فني جميل ، والعروس المقرطق التي ترتدي القرطق وهو لباس فُتن به شعراء العصر العباسي وخاصة ابو نؤاس وابن المعتز وتردد ذكره في وصف الخمر والغزل.

ومن افضل خواتم قصائده واطولها خاتمة (الذهبية) وهي قصيدة بائيّة طويلة أميلُ الى ادراجها هنا مادام البحث قد اتسع واضطرتنا طبيعته وكثرة موادهِ الى الاطالة. قال ابن ماجد يختم الذهبية:

لقد صدقت في وصفها ذهبيةً كنسجِ دلاصٍ لا كنسجِ العناكبِ
فلو نَطقت قالت ألا يا مصنّفي بلغتَ المُنى يا ابنَ الجدودِ الأطايبِ
ستعرفُني الفرسانُ في كلِّ موكبٍ ولم احمل الخطيّ فوق الكتايبِ ولو سحرَ الافلاكَ غيري بحكمتي لكانت مشاهيرُ النجومِ حبايبي
كشفتُ شكوكَ المسلمين بقيلةٍ يُصلّى بها من مشرقٍ ومغاربِ
هديتكمُ والرأيُ ألاّ تسافروا على البحرِ إنّ البحرَ شرُّ المراكبِ
ولا تأمنوا المكروهَ فيه لأنّهُ يواصلُ مكروهاتِ كلِّ المصايبِ
كفت احمدَ السعديَّ شفاعةُ احمدٍ اذا ما رمى يوم الوعيد بصايبِ
عليه صلاة الله مني ما جرى على الفُلك جارٍ في ضيا وغياهبِ
وما سار مابين الفرنجِ وصينِها على البحرِ سُفّارٌ بفُلكٍ وقاربِ (36)

وطابع الملاح والبحّار واضح في هذه الابيات وهو اوضح في خاتمتها التي باركها بذكر النبي(ص) ومدحه والسلام والصلاة عليه ماجرت السفن في النهار والليل وما سافر الناس بفلك وقارب بين الصين والفرنج ، وسباكتها لا تحتاج الى مزيد من الملاحظات والاقوال والاحكام والشواهد للدلالة على شاعرية هذا القائد البحّار الذي لاندري كيف كان يختلس الاوقات للقراءة والتفكير ونظم الشعر وتنسيق المعارف والمعلومات النظرية والتطبيقية في

الاراجيز والقصائد الطويلة وتطعيم ذلك كله بقطع وقصائد واشعار مناسبة للموضوعات المدوّنة المنظومة والمنثورة. ولا ننكر ان قسماً غير قليل من منظوماته العلمية والفنية قد انجزت خلال اقامته في البر بين رحلة واخرى , وان قسما اخر قد نظم بعد ان ترك الملاحة لتقدمه في السن ولكن الذي لا ريب فيه كما تدل على ذلك اراجيزه واشعاره ان قسما كبيرا منها كان يضعها خلال رحلاته الطويلة التي استغرقت حياته كلها تقريبا. وما ذكرناه يؤهله لان تكون له مكانة بين شعراء عصره ، وان يوضع في المكان الارفع بين من كان له أدب وكان له شعر بين رجال البحر من العرب وغير العرب في عصور الأدب العربي المتعاقبة التي لم تنجب فيما أعلم بحّارا او ملاحاً شاعراً مثل ابن ماجد وخلال القرون الاوربية الوسطى التي يبرز فيها بحّار اديب شاعر من هذا الطراز.
ولا نود ان نترك هذا الملاّح الشاعر والبحّار الأديب قبل ان نتحدث عن نثره ، وان كان المنثور الذي وصلنا قليلا لا يتعدى ما جاء هنا وهناك في كتاب الفوائد على الاخص وفي مقدمات بعض الاراجيز وبين ابياتها وقد اشرنا الى بعض ما تضمنته من استطراداته وشروحه من معارف واحكام ادبية عند تطرقنا الى الكلام عن ثقافته الادبية والشعرية.

وقد امعنّا النظر في ما استطعنا الرجوع اليه من كتاباته النثرية القليلة فوجدنا انها في ثلاثة انواع:(نثر علمي خالص) لم يصل منه غير كتاب الفوائد في الفصول الخاصة بعلوم البحار وفنون الملاحة ، و(نثر ادبي وصفي) يتمثل في شروحه لبعض اشعاره واشعار الشعراء السابقين وفيما اقترن بذلك من اخبار وقصص وحكايات صاغها ابن ماجد بأسلوبه او تصرف في متونها عندما اقتبسها من كتب الادب القديم فزاد او انقص واسهب هنا واوجز هناك. و(نثر ادبي خالص) له نجده في مقدمة كتاب الفوائد وفي المقدمات النثرية لبعض اراجيزه المهمة كالحاوية. وهذا النثر نوعان نثر مرسل يخلو او يكاد من السجع والمحسنات البديعية ، ونوع يكثر فيه السجع والازدواج ويكاد يخلو من استعمال المحسنات البديعية الاخرى التي جرفت موجتها العارمة ابرز واشهر كُتّاب العصور المتاخرة ومؤلفيها. ولن اتوقف على نثره العلمي فخصائصه وانواعه معروفة لاموجب للانشغال بها هنا. وقبل

ان نقول شيئاً عن نثره الادبي الخالص ونثره الادبي الوصفي لابد من تقديم النماذج التي تستحق ان نستشهد بها ليتسنى لنا فحصها والخروج ببعض الاحكام والآراء والملاحظات المناسبة، وتحديد ما يمكن تحديده من الخصائص والقيم الفنية وبيان ما لها وما عليها.

ففي نص مقدمة كتاب الفوائد يقول المؤلف بعد البسملة:(37)

((الحمد لله والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله وصحبه وسلم وبعد فإني رأيت العلوم في الدنيا أسمى مفخرا وأجل مرتبة وأشرف منقبة لقوله صلى الله عليه وسلم وتحريض ساير الانبياء على طلب العلم حتى قيل ما من علم قبيح الا والجهل به اقبح منه فكيف وهذا علم لم تُعرف قبلة الاسلام الا به ولا أصح منه والدليل على صحته اني اقول وأفعل به فيا طالما قد أتينا بالمراكب من الهند والشام والزنج وفارس والحجاز واليمن وغيرهم بقصد لا يميل عن جهة البلد المطلوبة بأموال وأرواح وهذا دليل مؤكد أن هذا العلم يحتاج اليه اهل الفرايض. وقد قرأ علينا فيه كثير من علمائهم وقضاتهم لمعرفة القبلة واستحسنوه وعملوا به دون غيره من العلوم التقريبيات كنصب الدايرة وركز العود فيها ومعرفة طول مكة وعرضها وطول البلد الذي انت فيه وعرضه ثم طول وعرض جميع البلدان والجزر الجنوبية في البحر وما يحتاجون فيه من علم. وعلمنا يحكم على جميع ذلك لأن البحر اكثر من البر فرتبنا الكتاب ليرتقي الانسان به فإن أمكنه المعرفة بعلم الدايرة والاطوال والعروض ومعرفة جهات الكعبة والارياح الاربعة وهي شمال ودبور وجنوب وصبا وهذه الارياح الاربعة الشهيرة في الدنيا. . فان قدر الانسان ان يفعل شيئا غير معرفة البحر وحسابه فليفعل واذا عجز عن قبلة المدن والجزر اللاتي في البحر المحيط فليعمل بعلمنا فاجتهدوا فيه فإنه علم نفيس ولا يتم الا بتمام العمر وما لا يدرك كله لا يترك جله . وينبغى ان لا يتكبر فيه الانسان كما قال المصنف في حاويته شعرا :

وينبغي البعدُ عن الخيلاءِ عند كمال العلمِ والنهاءِ

وينبغي لعارف هذا العلم ان يسهر الليل ويجتهد فيه غاية الاجتهاد ويسأل عن اهله وعن حزبه حتى يحصل مراده لانه علم عقلي وكثرة السؤال فيه ترقية لباقيه فيعلم ما لا يعلمه فتتم به رياسته لان من أدعى الرياسة بغير كمال اسبابها وادواتها فقد أخطا كما قيل شعرا:

رياساتُ الرّجالِ بغيرِ علمٍ ولا تقوى الاله هيَ الخساسة

واعلم ايها الطالب ان كل علم يحتمل ان يشتغل به طالبه من المهد الى اللحد كلما تفنن فيه وادمن عليه ظهر له منه شئ لم يكن عند غيره حتى يكون مصنفا فان أتقنت هذا العلم لمعرفة القبلة كان خيراً لك من ان تغفل به فان ركبت البحر تكون عارفا به مطمئن القلب ولو كنت تاجراً فأنت مطمئن القلب لم تحتج الى اموال وان احتجت اليه لجمع المال وألجأك اليه الزمان فافعل به (ولا) تكن ذا غفلة فأن الخطأ فيه مضل وأدعى لتلف الأرواح والاموال وهو اصعب شئ بعد خدمة الملوك . وساير العلوم خطؤها لفظي يمهلك وهذا لم يمهلك والعلم فحل لم يعطك بعضه حتى تعطيه كلك.. وقال علي رضى الله عنه: قيمة كل امرئ ما يحسنه ، وقال صلى الله عليه وسلم: ان الله تعالى يطاع بالعلم وشر الدنيا والاخرة مع الجهل ، وأجود ما قيل في ذلك نظما (شعرا) فيه قولنا:

العلمُ لا يعرِفُ مقدارَه الا ذوى الاحسانِ عند الكمال

فها أنا ذا اختصرت منه ما يليق لأهل زماني في هذا الكتاب المسمى بكتاب الفوايد في اصول البحر والقواعد ألّفته وصنفته لركاب البحر ورؤسائه وفيه ما اشتبه من الحاوية وغيرها على الطالبين وبالله التوفيق وقد سميناه كتاب الفوايد وهو مشتمل على فوايد كثيرة غوامض وظواهر اثنى عشرة فايدة (كذا) وهي:(الفائدة الاولى .. الخ)..ويختم المؤلف هذا الكتاب بقوله:

((وختمنا هذا الكتاب في عام خمس وتسعين وثمان ماية على الاختصار بقولي اوصيكم بتقوى الله وقلة الكلام وقلة المنام وقلة الطعام ونستغفر الله من التقصير والزيادة والنقصان)) ويضيف الناسخ بعد ذلك قوله: ((تم الكتاب بحمد الله تعالى وعونه وحسن توفيقه , وهو الكتاب المسمى بكتاب الفوائد في اصول علم البحر والقواعد , وذلك في يوم الاحد المبارك سابع عشر ربيع الثاني في سنة اربع وثمانين وتسعماية (984هجرية) أحسن الله عاقبتنا وبالله التوفيق)) .(38)

وواضح ان هذه المقدمة تدل على امتلاك ناصية الكتابة النثرية والقدرة على التعبير عن الغاية المقصودة من تأليف الكتاب والافادة من الذخائر الادبية والدينية باسلوب يحسن وضع الاقتباسات في مواضعها المناسبة وتجنب الاستطراد المخل والاطالة التي تبعد الكاتب والقارئ عن ادراك

الغرض الذي يرمي الكاتب اليه ويدير الكلام عنه بايجاز خفيف ويجتنب التعقيد والغموض والتواء الجمل والعبارات التي يتعرض لها الذين ينحون الى الايجاز الشديد مع التمسك بالمحسنات البديعية وتعمد استعمال اللفظ الغريب الذي يدفع اليه هذا الاتجاه الذي تولع به الكتاب في عصر ابن ماجد أي تولع.

والمقدمة غنية بالافكار العميقة والحرص على التوجيه العلمي بأسلوب ادبي مرسل لا تجد فيه اكثر من سجعتين او ثلاث لا تكاد تحس بها كقوله في مستهلها بعد الحمد لله والسلام على النبي (ص).. فاني رأيت العلوم في الدنيا اسمى مفخراً واجل مرتبةً واشرف منقبةً. الخ حتى قيل ما من علم قبيح الا والجهل به أقبح منه . وهو لا يغفل عن تطعيم منثوره ببعض اشعاره التي تناسب الموضوع وتأتي في الموضع الذي يجمل ان نستشهد بها فيه دون ان تقطع تسلسل الكلام او تبدو مفحمة او نابية وهذا يؤكد سلامة ذوقه وقدرته على ادارة الحديث ادارة بارعة تحفظ له الوضوح والانسجام والتسلسل وكل ما يضمن سرعة الافهام او التفهيم و استيعاب الاغراض العلمية والقيم الخلقية التي تفرضها هذه الاغراض على المشتغلين بالعلم. واذا كانت مقدمة كتاب الفوائد كما رأينا من النثر المرسل الذي يجيز لنا ان نعده من النثر الادبي بصرف النظر عن مادته او غرضه العلمي للاسباب التي عرضناها ، فان مقدمة ارجوزته الكبرى (الحاوية) نوع اخر من هذا النثر ايضا ولكنه يستعمل فيها السجع والازدواج وبعض فنون المجاز وسنشير الى ذلك بعد قراءة النص. قال:

بسم الله وبه نستعين

((الحمد لله على حسن توفيقه والهام الحق بتحقيقه والهداية لاسباب الخير وطريقه ونصره في تغريب الفُلك وتشريقه احمده على معرفة الهمناها وأمدها لسلسبيل البحر ورحيقه وفصاحة تدهش بليغ اللفظ ووجيزه والصلاة والسلام على النبي الأمى وعلى اله وصحبه وفريقه ، اما بعد:

خذ التواضع ورقيق اللفظ وجزله فأن التصنيف لمثل هذه الارجوزة زكاة الافهام وتحديد سر دراسة الليالي والايام. اقبلت بي اليها طاعة ملك الاملاك ومدبر العالم والافلاك لقوله جل من قائل (وعلامات وبالنجم هم يهتدون) فتحققت ظنوني وشاهد قلبي وعيوني ان فيها وبها بعد الله تعالى الهداية ومما

حل به على نظمها خشيتي ايقاع الجهل على البرية واندراس العلم ونزوله بساحة من ليس له فيه اهلية. فوضعت فيها من الالفاظ الغريبة والحكمة الربانية بمشيئة الله تعالى ما ارجو به انشراح صدور ذوى الالباب عندما يدهمهم من شدة ومصاب ، صفيتها مما سلك في عصري من الاراجيز المصنفة والرهمانجات الواسعة المؤلفة كثيرة التردد والتكرار مستحسنة لكافة الجمهور وهي (للمهموم) اقالة وحضور وكان قصدي الاختصار واسقاط الحشو من هوش الاكثار لئلا يستطيلها الملول ولا يتفرغ لقرايتها المشغول فرحم الله من تصفح ما يجده من الزلل ويصلح ما فيها من خطأ وخلل . وهي الارجوزة المسماة بحاوية الاختصار في اصول علم البحار مشتملة على احد عشر فصلا تصنيف العبد الفقير بالعجز والتقصير اقل عباد الله واحوجهم الى رحمة ربه العلي الكبير بقية السلف وعمدة الخلف المعلم الشهير احمد بن ماجد بن عمرو بن فضل بن دويك ابن ابي الركايب النجدى عفا الله عنهم وعن جميع المسلمين امين. يا كافي يا شافي يا هادي يا معين)) (39) .

ولعلك قد لاحظت ان التزام السجع يجعلها تختلف عن المقدمة السابقة ويقربها من الاساليب السائدة في عصرها ولاسيما في مقدمات الكتب والمصنفات التي يسميها القدماء خطبة الكتاب . ومع ذلك فلم يكن سجع ابن ماجد معقدا ولا ثقيلا لقصر الجمل والعبارات وتواليها بلا فواصل طويلة او استطرادات بعيدة , ولم ينس اقتباس الاية الكريمة (وعلامات وبالنجم هم يهتدون) كما لم يغفل الاشارة الى المصنفات والاراجيز الاخرى السابقة وانصافها حين وصفها بقوله انها (كثيرة التردد والتكرار مستحسنة لكافة الجمهور وهي للمهموم اقالة وحضور..) ولاحظ انه يبدأ مقدمته موصياً او ناصحاً باستعمال رقيق اللفظ وجزله مقدما الرقيق على الجزل دون ان يشعر بانه يقصد ترك هذا الجزل فهو ضروري في موضعه.

ولا أود ان اكرر هنا ما قلته قبل قليل من ان ابن ماجد يبدو مسيطراً على موضوعه واثقا من قدرته على التعبير موقناً بانه يمتلك الأدوات واللوازم والذخائر الثقافية والادبية التي تدفعه الى كتابة المنثور وهو مطمئن النفس متفتح الفكر يدير قلمه بلا تكلف او تردد او تعثر يضطره الى

المعاظلة اوالالتواء اوالحشو والخلل وغير ذلك من العيوب التي نجدها احيانا في نظمه التعليمي بخاصة.

وفي الختام اود ان اؤكد انني لا ازعم ان ابن ماجد من كتاب العصر الذين يشار اليهم بالبنان وان كان عصره ضنيناً او عاجزاً عن انجاب امثال تلك القمم السابقة في فن الكتابة التي تفخر بها عصور الازدهار في العصر العباسي(*) ، ولكنه على كل حال واحد من الذين حظوا بمواهب ومؤهلات مكنتهُ من ان يكون شاعراً وكاتباً وعالماً وملاّحاً قديراً يحق له ان يذكر بين شعراء زمانه بصرف النظر عن مقارنته بكبار الشعراء وانه يعدُ من القادرين على الكتابة الى حد يجيز لنا ان نشهد له بامتلاك اداتها وان نعده من القادرين على المضي فيها والصعود الى مستوى اعلى لو تسنّى له التفرغ اليها وان مؤرخ الادب الذي يعني بتاريخه ورجاله وانواعه الشعرية والنثرية خلال الحقبة الممتدة بين سقوط الخلافة العباسية سنة 656 هجريه/1258 ميلاديه ، وقيام الدولة العثمانية واحتلالها لبغداد سنة 941هجرية وهي الحقبة التي تضمنت عصر المغول الايلخانيين وعصر الجلائريين وعصر التركمان في العراق وعصر المماليك في مصر والشام.(40)

(*) يعني بذلك كبار الكتاب في العصر العباسي كالجاحظ وابن المقفع وابن قتيبة وابي حيان التوحيدي ومن هم من طبقتهم او ادنى

المصادر الأساسية

1- ابن ماجد الملاّح الفوائد في اصول علم البحر والقواعد ، طبعة مصورة ، نشر جابرييل فرّان ، باريس 1921-1923 ، رمزها في الهوامش: الفوائد
2- ابن ماجد الملاّح ثلاث ازهار في معرفة البحار ، طبع مصور ، نشر تبودور تشومو فسكي ، مع مقدمة قيمة باللغلة الروسية ، موسكو 1957 رمزها في الهوامش: ثلاثة ازهار. ط ر =(الطبعة الروسية)
3- ابن ماجد الملاح ثلاث ازهار في معرفة البحار ، نشر وترجمة وتعليق د. محمد منير مرسي مع ترجمة مقدمة المستشرق الروسي تشومو فسكي . القاهرة 1969. رمزها في الهوامش: ثلاثة ازهار ط م = (الطبعة المصرية)
4- الشعر الملاحي عند احمد بن ماجد . القسم الثاني ، القصائد . تحقيق ابراهيم خوري ، مع مقدمة باللغة الفرنسية وتقديم مقتضب باللغة العربية في مجلة المعهد الفرنسي في دمشق:
Bulletin d'etudes orientales tone XXXVII – XXXVIII, 1985-1986, Damas 1988
العدد 38/37 لسنة 1985-1986 دمشق 1988 ورمزها في الهوامش: خوري:القصائد

الهوامش

(1) الفوائد. مقدمة فرّان بالفرنسية صفحة I-III
(2) ج. فرّان
Ferrand.g. Introdution a d'astronomie nautique arabe. Paris 1928
(3) كراتشو فسكي : تاريخ الادب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، القاهرة 1957 انظر (الفصل العشرون) 562-581- ص562 ,568 ,575-578
(4) تشومو فسكي . ط ر . انظر المصادر الاساسية
(5) انظر: د. انور عبد العليم ، ابن ماجد الملاح ، الفصل الثالث/ ص46-63 القاهرة 1966.و د. صبري فارس الهيتي ، الشيخ شهاب الدين احمد بن ماجد / ص17-23 بغداد 1989 . ويؤيد الهيتي رأي المستشرقين بان ابن ماجد كان مرشد فاسكودي غاما . ود. عدنان اسماعيل الياسين . احمد بن ماجد . مجلة كلية التربية بجامعة بغداد ، العدد الاول 1987-1988 ص55-92 و ص55-57 . حسن صالح شهاب . اضواء

على تأريخ اليمن البحري. بيروت 1981 وعلوم العرب البحرية من ابن ماجد الى النظامي. منشورات مجلة دراسة الخليج والجزيرة العربية ، الكويت 1984: وخالد سالم محمد . ربابنة الخليج العربي ومصنفاتهم الملاحية. الكويت 1984 . ومحمد ياسين الحموي . الملاح العربي احمد بن ماجد . دمشق 1947

(6) انظر تفاصيل ذلك في: انور عبد العليم: ابن ماجد الملاح. الفصل الثالث ص 57 , 60 وفي مواضع اخرى متفرقة

(7) حسن كامل الصيرفي: الملاح الشاعر ، مقال مجلة المجلة القاهرية ، العدد السادس. 1957

(8) الصيرفي م.س. اول من ادرك ذلك وأشار اليه واقترح على المجمع العلمي الاهتمام بهذه المصطلحات . وكرر الباحثون العرب ، انظر الهامش(5) هذه الملاحظة في مواضع كثيرة لاحاجة الى ذكرها هنا

(9) ذهب الى ذلك فرّان. مقدمة كتاب الفوائد ، وتشومو فسكي في مقدمة الطبعة الروسية لكتاب ثلاثة ازهار وابراهيم خوري . ومال الى هذا الرأي د. انور عبد العليم في غير تصريح دقيق . انظر هامشنا رقم (5) ، ولاسيما في مقدمات منشورات المستشرقين ومقدمة نشرة ابراهيم خوري . وانظر ابن ماجد لأنور عبد العليم ص 23.

(10) انظر على سبيل المثال كتاب تحفة الاعيان للسالمي والفتح المبين لابن رزيق.

(11) وهي كثيرة الآن نذكر منها:الشعر العماني ، د.علي عبد الخالق علي .القاهرة 1984، مقوماته واتجاهاته وخصائصه الفنية.

(12) انظر :د.شوقي ضيف .عصر الدول والامارات.

(13)شوقي ضيف ، م.س

(14) الشعر العماني. انظر الهامش(11) القاهرة 1984 .دار المعارف.

(15) لا نرى موجباً لإثقال الهوامش بمؤلفات هؤلاء المؤرخين كالمسعودي والجغرافيين كابن الفقيه وابن حوقل والادريسي وياقوت ولا الرحالة العرب كابن بطوطة وابن جبير فمؤلفاتهم معروفة شائعة وفيها فصول كتبت بأساليب ادبية جميلة.

(16) انظر ادب البحر.عدد خاص من مجلة الهلال.

(17) كراتشوفسكي: تاريخ الادب الجغرافي العربي ، 577/2 -580-القاهرة 1957

(18)ثلاث ازهار ، القسم الثاني ، الدراسة التاريخية ص 100- ترجمة محمد منير مرسي – القاهرة 1969-نقل وترجم عن طبعة شوموفسكي بعنوان ثلاث رهمانجات مجهولة-طبع موسكو 1957

(19) عبد العليم .م .س 22.

(20)الفوائد. الورقة 17.

(21) الفوائد .الورقة 18.

(22) الفوائد .الورقة 19.
(23) الفوائد . الورقة 23.
(24) الفوائد .الورقة 34.
(25) الفوائد .الورقة 43.
(26) الفوائد . الورقة 45.
(27) الفوائد . الورقة 46.
(28) الفوائد . الورقة 48.
(29) الفوائد . الورقة 58.
(30) الفوائد . الورقة 77.
(31) الصيرفي . الملاّح الشاعر ، مجلة المجله ، القاهرة ، العدد السادس 1957 .
(32) عبد العليم . ابن ماجد الملاّح 90-97.
(33) خوري . القصائد 230 وهي من القصيدة الفائقه .
(34) خوري . القصائد 222-225.
(35) خوري . م . ن
(36) خوري . القصائد 262.
(37) الفوائد . المقدمة ، الورقة 1-2 واكتفينا بما اقتبسه منها د. انور عبد العليم : ابن ماجد الملاّح 65-66.
(38) م . ن
(39) م .س 53-54 والفوائد الورقة 88-89.
(40) للاطلاع على احوال الشعر والشعراء والكتابة والكتاب في العصور المشار اليها ، انظر فيما يخص العراق :
د. علي الزبيدي : الادب في العصر المغولي والعثماني ، في كتاب حضارة العراق ج 11 بغداد 1985 ومراجعه
والدكتور شوقي ضيف : عصر الدول والامارات ، وقد مر ذكره في الهوامش ، وعن مصر ، راجع: محمد زغلول سلام : الادب في العصر المملوكي ، جزآن، القاهرة 1971 ومراجعه.